

المدارس العلمية العتيقة وخصائصها بسوس

الحسين وكاك

إن الحديث عن المدارس العلمية العتيقة وخصائصها وعطائها وصمودها، هو الحديث عن معقل الفكر المغربي الذي صان وحدة المغرب وعقيدته وهويته وتراثه عبر القرون. دعاني القدر إلى تناوله معرفاً بها أمام عدد من المستجندات في الساحة وعلى رأسها ورقة عمل المشروع المجتمعي التي أعدها العضو الزميل، الأستاذ محمد الكتاني الذي حركه ضميره الحي، وقادته أصالته الناصعة ودعاه إيمانه القوي، إلى البحث عما يجب تطبيقه في الساحة المغربية من تغيير اجتماعي مطلوب، حتى يواصل المغرب مسيرته في إطاره الإسلامي المعروف والمألوف.

وان من الهدي الرباني ان سطع نور تلك الورقة الوهاج من قلب زميلنا الطبيب النطاسي الدكتور السيد أحمد رمزي الذي ترجمها بمدلول اللغة⁽¹⁾ ومضامينه وفصل الكلام حول انطلاقاتها، والمعوقات التي عوقت مسيرتها حتى أصبح المجتمع المغربي اليوم ينفلت من هويته، وتنبعث منه نفسه معوقات أخرى تعتم طريقه، وتجعله يهيم في مآهات أخرى تلهيه عن اللحاق بالأمم التي سبقته في ميادين الحياة.

وقد واكب هذه الحركات المباركة التي تقوم بها لجنة القيم الروحية والفكرية في أكاديمية المملكة المغربية صدور الظهير الشريف رقم 10209 المكرم للتعليم العتيق، والمنشور في الجريدة الرسمية عدد 4977 والمؤرخ ب 28 دي القعدة 1422 هـ الموافق 11 يبرابر 2002 م، هذا الظهير الذي سيحقق مدلوله كل التساؤلات التي طرحها مفهوم المشروع المجتمعي المذكور، ويؤكد الهدف الذي وضحته ورقة اللغة السابقة وينعش مؤسساتها في التعليم العتيق المتجلي في جامع القرويين والمدارس العتيقة والزوايا العلمية والمساجد الجامعة والكتاتيب القرآنية وغيرها من المؤسسات التي جعلت المغرب موطن العلم والإيمان، ومنطلق المثل العليا في الحياة منذ القديم.

وإذا قلت منذ القديم، فلأن الحركة الإيمانية الأولى بالمغرب كانت كما يقول⁽²⁾ المؤرخون من بركات المصامدة⁽³⁾ أو الركراكة المغاربة الموفقين إلى تنظيم زيارة للمدينة المنورة، بعدما تيقنوا أن ما يوصون به من طرف آبائهم الحواريين قد تحقق وأن هناك نبيا قد بعث، وأن حبهم الفطري لهذا الخبر الجديد، وتقديرهم التلقائي لما يسمعون جعلهم يغامرون إلى اكتشافه والقيام بعملية الاتصال بالنبي المبعوث الذي انتشر نبؤه في الآفاق. وقد ترجم هذا الحب المصامدي الفطري ما ورد في ورقة اللغة حين قالت : «دخل الإسلام المغرب، ودخلت معه اللغة العربية وكغيره من البلدان الأخرى تعلم المغاربة وأكثرهم أمازيغ - اللغة العربية بفضل تلاوة القرآن».

تم تحدثت وذكرت مراكز الإشعاع العلمي في فاس وجامع القرويين ثم في مراكش وجامع ابن يوسف والمدارس العتيقة المنتشرة في بوادي المغرب وكان لعهد الزوايا دور كبير كالزاوية الدلائية وغيرها من الزوايا العلمية التي نشرت العلم وأذكت روح الجهاد ضد الدخلاء.

وإن كل ما عبرت عنه ورقة اللغة من حيوية المغاربة وأصالتهم وهويتهم وتشبثهم باللغة العربية وعلومها وأخلاقيها، زكته مظاهر الرغبة العامة في إجراء

تغييرات اجتماعية وملحة في عهد مولانا محمد السادس نصره الله وعلى رأسها القانون رقم 319 الصادر لتجديد وتنشيط التعليم العتيق في المغرب كله، هذا التعليم الذي جرب عبر العصور وزود المغرب بوسائل مكنته من تأسيس إمبراطورية شامخة العرنيين.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المغرب المجيد أصله والعتيق مجده والعظيم تاريخه، والشريف نظامه، والمبارك شعبه، سيبقى كما أرادته ربه مستظلا بظلال دعوة نبيه الذي قال فيه : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله⁽⁴⁾ ».

لأن الورقتين المقدمتين لأكاديمية المملكة المغربية كانتا خير مترجم لمدلول ما تحدث عنه المغفور له مؤسس هذه الأكاديمية مولانا الحسن الثاني رحمه الله حين قال «المغرب معرض لخطر واحد، هو أن تمسخ شخصيته، المغرب لا يخشى الفقر لأن الله سبحانه أعطاه الخيرات، والمغرب لا يخشى السيطرة، لأن الله خلق فينا والحمد لله روح الكفاح وروح الدفاع، وعدم الرضا بأي سيطرة كيفما كانت، ولكنني أخشى المسخ لشخصية المغرب أكثر من كل شيء، وشخصية المغرب أمانة في عنق كل واحد منا، ولكنها أمانة لا يجوز تضييعها أبدا»⁽⁵⁾.

ولأن الورقتين كانتا خير معبر عما تحدث عنه العلامة المرحوم شيخنا سيدي محمد المختار السوسي في مقدمة كتابه المعسول⁽⁶⁾ تحت عنوان : «بين الأمس والغد»، وهو يستغرب التحول المباغت، والواقع في المغرب بعد الاستقلال حين قال :

«أمس كان الدين ومثله العليا والتخلق به والتحاكم إليه والحرص على علومه واحترام حملته هو المعروف المجمع عليه، لا يختلف فيه اثنان، لأن ذلك

راسخ في النفوس، وتواترت عليه القرون، منذ عرف المغرب الإسلام إلى أن أدركنا نحن ذلك في أوائل الرابع عشر».

وبعدما تحدث عن المفارقات السائدة بين الأمس واليوم، أضاف قائلا :

وأعظم ما نهتم له شيئان : أحدهما التفريط في المثل العليا التي لا ترسخ في الشعوب إلا بعد جهود قرون، ومتى اجتثت من أي شعب بمثل هذه الاندفاعات العمياء فإن أبناء ذلك الشعب، سرعان ما ينحرفون عن الصراط المستقيم في الحياة.

وثانيهما : التفريط في اللغة العربية وآدابها التي هي شعار المغرب، وكنزها الموروث المحافظ عليه كلفة رسمية، حتى يوم عممت تركيا لغتها في جميع أنحاء بلاد العرب منذ أوائل القرن العاشر الهجري، وليت شعري - يقول المؤلف رحمه الله - لماذا كنا نحرص على الاستقلال إن لم تكن أهدافنا المحافظة على مثلنا العليا المجموعة في أسس ديننا الحنيف، والمحافظة على هذه اللغة التي استمات المغاربة كلهم عربهم وبربرهم في جعلها هي اللغة الوحيدة في البلاد.

ثم قال رحمه الله : ومعلوم ما للمغراويين والمرابطين والموحدين والمرينيين من تمجيد هذه اللغة، وهي دولة بربرية صميمة، وذلك هو موضوع العجب، وأما أن يحافظ الأدارسة والسعديون والعلويون عليها، فإن ذلك أمر طبيعي، لأن الجالسين منهم على العرش عرب أقحاح، هكذا أصبحنا - يقول المؤلف - رحمه الله - نرى كثيرا من تراثنا يضمحل بكل سرعة، ثم لا يطمع أن يتراجع الأخلاف إلا بعد زمان نطلب الله أن لا يطول، وحول هذا التحول المبالغ في المغرب تذاكرت يوما مع شيخنا المرحوم الأستاذ علال الفاسي في بعض لقاءاتي العلمية مع سيادته فقال : «إن المغرب اليوم في حاجة إلى مدارس إسلامية لنشر الوعي الديني بين المواطنين مثل المدارس الحرة التي أسسناها

لنشر الوعي الوطني بينهم، وإذا لم تؤسس في أقرب وقت ممكن، فسيصبح بلدا بلا هوية».

وإذا أمعنا النظر في هذه التحذيرات، وأقبلنا على محاور ورقة اللغة في المغرب الموضحة للمشروع المجتمعي المحرك للقلوب، فسند اللغة العربية معتبرة في الصدارة أمام كل تغيير، لطاقتها الدينية والخلقية، واعتزاز المغاربة بها إلى حد التنافس مع المشاركة، والتلاقح مع روادها بالأندلس بفضل مراكز الإشعاع العلمي السائدة في مجموع أنحاء المغرب، ابتداء من جامع القرويين بفاس، والمنتشرة بالجنوب انطلاقا من مدرسة أبي محمد⁽⁷⁾ وكاك في زاوية أكلو، وجامع ابن يوسف بمراكش ثم سادت بالشمال في شكل الكتاتيب القرآنية والمدارس الزوايا العلمية، المزدهرة أحيانا، والمسايرة للظروف أحيانا أخرى، حتى لا تخمد جذوتها، ويذبل نشاطها المنصب أساسا على نشر العلم والدين، وعلى بناء وحدة المغاربة المنبعثة من بيعتهم لأمر المومنين، على المعنى المأخوذ من توحيدهم لرب العالمين.

ويتجلى هذا الإقبال وهذا الاعتزاز مما أنشأوه من آلاف الكتاتيب القرآنية، والمآت من المدارس العلمية التي توصف اليوم بالعتيقة، والتي هي امتداد للعلم الإسلامي المعروف بالمدينة المنورة، وعواصم المسلمين الأولى القائمة بتنفيذ أمر الله بنشر العلوم والعرفان والداعية إلى الالتزام بمعاني الإيمان وأخلاق القرآن.

وقد كان لقبائل سوس البربرية، فضل السبق إلى تنوير الساحات اقتداء بالمدرسة الأولى بضواحي تزنيت، القائمة بواجبها منذ القرن الخامس الهجري، والداعية إلى حسن استعمال العلم في تحريك النفوس، وإيقاظ الهمم لمواصلة العمل نحو تركيز الأمة الوسط في المغرب على الشكل الذي طبقه الرسول ﷺ في المدينة المنورة وحافظ عليه صحبه وتابعوه في أقطار المسلمين.

وبعد هذا تنافست القبائل السوسية في بناء المدارس العتيقة عبر العصور تعميماً لما قامت به مدرسة أبي محمد وكاك من تفهيم تعاليم الدين الإسلامي الذي هو الدين عند الله، وقد ساعدها على ذلك ما أكرمها الله به من علماء منفتحين غير منغلقيين مثل مؤسسها وتلميذه عبد الله بن ياسين، الباذلين جهودهما لإحياء الموات وتنوير الساحات، حتى انبعثت من توجيههما تلك الدولة اللمتونية التي اعتنت بالبادية اعتناء تاماً، فأقامت لسكانها دعائم الدين وأسست لهم مراكزه، وحملتهم على إعلاء شعائر الإسلام.

ولحسن مقاصد رجالاتها، تبعهم في ذلك الموحدون الذين ازدان عصرهم بكثرة المدارس، وازدهار العلوم في سوس عامة، وفي حاحة خاصة، حسبما يذكره كل من العبدري⁽⁸⁾ في رحلته، وابن قنفذ القسنطيني في كتابه من أن حاحة كانت تزخر بالعلماء أمثال أولاده وإخوانه الذين استجاز لهم في رحلته سنة 688 هـ وأمثال البوزكريين وغيرهم من الذين يحملون راية التصوف بيد، وراية العلم باليد الأخرى في مواكب تنوير القلوب والدروب.

وقد استمر تأسيس المدارس العتيقة من القرن السابع فالثامن إلى الآن، لأن الجزوليين دائماً سباقون في كل عصر إلى الغايات، ولن يفسحوا المجال أمام حاحة لتتقدم وحدها في الميدان، وفي القرن التاسع، اشتهر الحامديون والكراميون بالعلوم، والكراميون هؤلاء من حفدة ابن عربي المعافري، وكانوا ممن انفلتوا من الأندلس مع حفدة ابن رشد الذين لا يزالون بقبيلة «أداكمار» ومع المنفلتين الآخرين الذين يسمون «آيت اغرابو» أي الذين ركبوا الزورق في بعض سواحل الأندلس، فنجوا به إلى سواحل المغرب، فسكنوا بجباله إلى الآن، باذلين جهودهم في خدمة العلم والدين⁽⁹⁾.

وفي القرن العاشر ظهرت جماعة عالمة أخرى مثل سيدي الحسن التلميذ تلميذ ابن غازي وسيدي محمد بن إبراهيم التمارتي الذي كانت مدرسته تشد

إليها الرحال وتخرج منها العشرات من الأفاضل الذين انضموا إلى إخوانهم في الجبال من التمليين والهوزاليين والإيسيين وغيرهم ممن نشروا العلم والعرفان في العهد السعدي المزدهر ازدهارا كبيرا في العلوم والمعارف.

أما القرن الحادي عشر فقد حافظ على العهد العلمي فيه كل من سيدي عبد الله ابن يعقوب السملالي وأولاده، والأزاريفيين والرسموكيين والصوابيين وأمثالهم من الذين أشاد بهم إمام زمانه السيد الحسن اليوسي الذي استفاد الكثير من شيوخه عبد الغزيز الرسموكي الغريق في وادي الغاس، ومن علماء جزولة المجتمعين لدى أحفاد الشيخ الكبير سيدي أحمد بن موسى في إيلغ عاصمتهم إذ ذاك.

ثم لما جاء الشيخ ابن ناصر في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وقد طار صيته بتعليم العلوم، ويده ممدودة بالإعانة لكل غريب، وانقطع إلى القراءة، وانتال إليه طلبة «جزولة» فرجع منهم فحول هم الذين أقاموا أسواق العلم الحافلة في القرن الثاني عشر، ونشر العلم كان من ماهيات الطريقة الناصرية، فبه حقا انتشرت هذه المدارس في القرن الثاني عشر والثالث عشر حتى تنافست القبائل في بنائها، بحيث قل أن تجد الآن قبيلة إلا وفيها مدرسة أو مدرستان أو أكثر، وإذا كانت القبيلة كبيرة، بنى كل فخذ مدرسته على حدة، كالبعلقيين، والمجاطيين والرسموكيين.

ويجب أن يعرف أن ازدهار العلم والدين في سوس في هذه القرون الثلاثة إنما يرجع إلى الشيخ ابن ناصر رحمه الله بواسطة تلاميذه، وهذه مدرسة الإمام «الحضيكي» في أفيلال، ما قامت إلا تحت ظلال الطريقة الناصرية وكذلك مدرسة العباسيين ومدرسة الصوابي، والمدرسة الجشتيمية، ومدرسة الأسغركيسيين، وكلها مدارس مهمة لها دور كبير في نشر العلوم والعرفان وفي تنوير القلوب بالدين والإيمان⁽¹⁰⁾.

وأما المدرسة التمكيدشية المؤسسة في القرن الثالث عشر، فحالها أشهر من نار على علم، فقد امتد بسببها خير كثير، بواسطة الوعاظ في الأسواق الذين يعلمون العامة أصول الدين، والعقائد الصحيحة حتى لقد أصبحت أسواق جبال جزولة وأزغار في زمان ببركة التمكيدشتيين، كأنها مدارس، ووعاظها هم الذين ينتقلون من سوق إلى سوق، وليس لهم شغل إلا هذا التعليم المذكور، كأنهم سفراء الدين والرسل الذين يعرضون الحكم على كل وارد وصادر، مع قناعتهم بما تيسر مما يعين به من حضر، ومن أولئك الوعاظ سيدي إبراهيم الساموكني الذي كان في الفقهيات لاجارى، وسيدي محمد التمليلني الذي وعظه يفلق الصخور الصم.

ثم تفرعت عن المدارس الجشتيمية والتمكيدشتية، وكلاهما ناصرية المشرب مدارس كثيرة، مثل محمد بن إبراهيم التمنارتي الذي كان شيخ جماعة كثيرة من العلماء، ومثل محمد بن عبد الله مؤسس المدرسة الإلغية الذي تخرج من الجشتيمية، وكذلك تخرج منها الحاج الحسين الأفراني، والحاج ياسين، والحسن بن الطيفور، وناهيك دينا وجمالة بآخر الجشتيميين الحاج أحمد الورع السني الكبير.

وتخرج كذلك من المدرسة التمكيدشتية الأدوزيون الذين أخذ عنهم مسعود المعذري، وعلماء أساكا بإفران، وتخرج منها أيضا سعيد الشريف صاحب مدرسة إبو محمد الطائر الصيت، والحسن التملي صاحب مدرسة إرزان، ومحمد المزوضي الشهيرة مدرسته إزاء ضريح أحمد بن علي بوتيزوا في حوز مراکش وبهذا تخرج كل العلماء السباعيين أصحاب المدارس هناك، وتخرج من المدرسة التيمكيدشتية أيضا الحسين نيت بهي المتوكي صاحب مدرسة تلمست العاملة في جبال متوكة إلى الآن⁽¹¹⁾.

كيف تؤسس المدارس العتيقة وتنظم شؤونها

تؤسس المدارس العتيقة، وتنظم شؤونها من طرف القبائل الراغبة والمتنافسة في تأسيسها وتنظيمها، فكل قبيلة تبني مدرستها على الشكل الذي تريد، وغالبا ما تكون في ساحة مستديرة، وتبني فيها بيوت الطلبة والمسجد والمتوضأ ومسخن الماء وقاعة الدروس، إلى جانب مسكن أستاذها ومسكن الطاهية التي تطبخ للطلبة مؤونتهم، والهري الكبير لخزن شعير المدرسة.

والقبيلة المؤسسة هي التي تتولى تنظيم شؤونها، وتقوم بشرط فقيها وتؤدي له واجباته مسانهة، كما تقوم بتموين الطلبة من ثلث أعشارها التي تجمعها لذلك، وتعد لهم يوميا غداء وعشاء وهجوريا⁽¹²⁾ كما تنظم للأستاذ تموينه على الشكل الذي يحبه ويرتضيه، إما من هري المدرسة، أو يرتب ذلك على القبيلة بنظام وانتظام !

وغالبا ما تعين مقدما يتولى ذلك نيابة عنها، أو تسند الأمر كله لفقيه المدرسة الذي يكون له القول الفصل في كل ما يعود على المدرسة بالفائدة ويحقق للطلبة السند المطلوب ويجعلها تحيي الهمم وتربي السكان، وقد تكون للمدرسة أحباس وحقول وأملاك، إما من الشراء بما يفضل عن المؤن في الهري، وإما من الهبات والصدقات التي ترصد للضعفاء وغرباء الطلبة والزوار.

أما شرط الفقيه فإنه على القبيلة بحيث تدفع له حظا معلوما لكل كانون سنويا، من الشعير والذرة، والزيت والسمن والتمر وغير ذلك مما يجمعه الطلبة أو تجمعها القبيلة نفسها على الكيفية المتفق عليها بين الطرفين.

وإذا كان للفقيه بغلة، فإن مؤونتها مكفية من هري المدرسة⁽¹³⁾.

وهذا هو الغالب في التأسيس والتنظيم في مدارس سوس، ويحدث أن يقوم بعض العلماء بتأسيس مدرسة وحده، ويتحمل مختلف الواجبات ولكن الحمل في

الأخير يثقل عليه، فيرجع إلى القبيلة لتساعده وتعينه حتى يسهل عليه الأمر كما يقول الشاعر :

إذا الحمل الثقيل تناولته أكف القوم هاب على الرقاب

وقد وقع هذا قديما في مدارس ثلاث : مدرسة «تاكوشت» ومدرسة «إلغ» ومدرسة «زاوية تيمكيدشت» وحديثا في مدرسة «إمي نوداي» بدائرة «إغرم» بعمالة تارودانت، ومازال صديقنا : السيد الطيب المنذري، يقوم بواجبات مدرسته كلها لحد الآن بحيث يدفع كما قال لي مصروفا شهريا يفوق عشرين مليون سنتيما لوجه الله، وقد زرته في مدرسته، وأطلعني على النظام العجيب الذي يطبقه ليلا ونهارا هناك من حيث التربية والتنظيم والتموين والتوجيه العام لطلبتها البالغ عددهم ستمائة طالب.

وقد فرض هذا على القبائل في سوس ما تتعرض له من الجفاف القاسي في بعض السنوات العجاف، أما حوز مراكش المعروف قديما بالخصب فمدارسه تؤسس وتنظم من علمائها الذين تجتمع عليهم القبائل وتخدمهم وتطيعهم وتحترمهم على الشكل الذي اعتادته أم مدارسها بقبيلة «مزوضة» التي أسسها العلامة سيدي محمد الأكنيضي في المتخرج بدوره من مدرسة تيمكيدشت، والذي كان السبب الأكبر في إنشاء خمسين مدرسة علمية بقبائل الحوز بتشجيع من الملك سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي رحمه الله.

هكذا تنظم شؤون المدارس بسوس، ويطبق هذا التنظيم نفسه في المساجد الصغرى في القرى، والتي تعتبر روافد لها في التعليم غير أنها تختص بسكان القرية يتعلم فيها أولادهم لا غير، أما المدارس فهي مشتركة بين أهل القبيلة، ومفتوحة الأبواب لكل الواردين والراغبين من السكان في تنوير عقولهم وتكوينهم الإسلامي العملي الصحيح⁽¹⁴⁾.

ويقوم بإمامة الصلوات الخمس في بعض المدارس معلمو القرآن في الكتاتيب، وهو يشترط لذلك كما يشترط الفقيه للدروس والإشراف العام، والمعتاد أن تجتمع القبيلة، عندما تريد أن تشترطهما في يوم معين من السنة، وتتذكر معهما كل على حدة حول لوازم الشرط، فإذا تم التوافق ينصرفان بسلام، فإن دارت السنة، ودار مثل ذلك اليوم الذي دخلا فيه في أي فصل كان، تجتمع القبيلة مرة أخرى، وتقرر معهما ما يتم الاتفاق عليه من جديد، وبعض القبائل تهتم بجمع الشرط اهتماما كبيرا، وتقوم بالنداء العام على سطح المسجد عندما يتم «الدراس» السنوي ليتم الجمع في يوم خاص يتواعدون عليه، فتري البهائم قوافل إلى المدرسة من كل طريق حاملة على ظهرها الميزانية العامة لتسيير هذه المدارس التي تعتبر شعبية صرفة، والبالغ عددها أكثر من مائتين حسبما ذكره «ليوطي» في إحدى خطبه التي خصصها للتعليم العتيق.

هذه هي اللائحة الأولى التي تحدث عنها العلامة محمد المختار السوسي بأنها تطبق في مدارس سوس العتيقة⁽¹⁵⁾، وذكر لائحة أخرى في كتابه سوس العالمية⁽¹⁶⁾ بأنها اللائحة التي تتبع في بعض المدارس الأخرى من سوس نتيجة التخصصات التي تنفرد بها المدارس فيما بينها حسب الميول والاختيارات.

العلوم التي تدرس بالمدارس العلمية العتيقة بسوس
والعلوم التي يتعاطاها السوسيون في المدارس العتيقة هي التالية :

العدد	الفن	المتون المستعملة	أهم المراجع المعتمدة
1	النحو	الأجرومية الجميل الزواوي لامية الأفعال المبنيات الألفية	شرح المحجوبي - الأزهري شرح الرسموكي - يبورك السملالي شرح البعقلي شرح «بحرق» شرح يبورك السوسي شرح «أبراغ» شرح الموضح/المكودي/البهجة أيسر المسالك للأدوزي
2	الفقه	المرشد المعين الرسالة لابن زيد المختصر الزقاقية العاصمية	شرح ميارة - شرح الأدوزي شرح أبي الحسن/ أو الحضيكي/ أو أكرامو السوسيين شرح التاودي - الشيخ الأمير شرح التاودي - الشيخ الأمير شرح البهجة
3	الأدب	مقامات الحريري	شرح الشريشي
4	اللغة	لامية العجم	شرح الصفدي
5	التفسير	تفسير الجلالين	روح البيان
6	الحديث	صحيح البخاري	فتح الباري - القسطلاني
7	السيرة	نور اليقين	سيرة ابن هشام
8	مصطلح الحديث	البيقونية	الفقيه العراقي
9	الفرائض	منظومة الرسموكي	شرحا الرسموكي الكبير والصغير
10	الحساب	المنظومة السملالية	شرح أحمد بن سليمان الرسموكي
11	العروض	منظومة الخزرجية	الحمدونية
12	المنطق	السلم	الأخضري
13	الأصول	جامع الجوامع	شرح ابن مسعود البونعماني
14	العقائد	السنوسية المرشد المعين	يبورك السملالي - علي ابن أحمد الرسموكي
15	البيان	التلخيص	السعد
16	الهيئة	المقنع	شرح المرغيتي - الكبير والصغير
17	الطب	تذكرة الأنطاكي	كتاب الزهراوي

كيفية الدراسة في المدارس العتيقة

يسود على الدراسة في المدارس العتيقة النظام والتدرج بحيث تفتتح أولا بالمستويات الصغرى، ثم المتوسطة، ثم الكبرى، فأول ما يأتي تلميذ مبتدئ يفتتح له الفقيه بيده من لوحته، ويكتب له بعد البسمة والصلاة على رسول الله عليه وسلم : أول «الأجرومية» أو «القرطبية» وهو : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع تم يقرره له بيده على الشكل المتبع لديهم ثم يقرأ درسه المقرر عند الأستاذ أو عند غيره من المعينين، ثم يحفظه مع تقاريره وحققه فإذا أتم «الأجرومية» المرة الأولى، يعيدها للمرة الثانية، ولكن هذه المرة يقرأ معها «الجميل» فإن أتمها ينتقل إلى «الزواوي» وقد أتم الأجرومية المرة الثانية، وفي كل ذلك يلزم بعرض كل ما كتب في لوحته، كما كان أيام قراءته للقرآن، ثم ينتقل إلى «المبنيات» و«اللامية» فيحررهما أيضا وكل ذلك بتفهم ومعاركة، وكثرة امتحان في الإعراب والإستشهاد على شاذة وفاذة بما درسه من «الأجرومية» و«الجميل» و«الزواوي» و«اللامية» و«المبنيات» ثم عليه أن يذيل لوحته بحفظ أبيات من ألفية ابن مالك يوميا إن لم يحفظها سابقا مع حفظ القرآن.

هذا هو العمل الدراسي في السنة الأولى غالبا، والطالب منكب فيها على هذه المبادئ العربية وحدها، بالتدرج المذكور، وبالكتابة في اللوحة بحيث لا يتناول شرحا للمؤلفات المذكورة، إلا بقصد التمرن على قراءة حروف المطبعة وبعد هذا ينتقل إلى مبادئ الفقه، فيفتتح بـ«المرشد المعين»، و«الرسالة» وإذا حصل هذا وعرضه على الأستاذ، تأتي نوبة «الألفية» أيضا في اللوحة بشرح «البهجة» للسيوطي والمكودي، وعليه أن يحفظ كل شواهدهما، ويتمرن على التلاوة في «المكودي» مناوبة مع المبتدئين أمثاله، وأما الشادون الذين أنهوا «الألفية» مرة قبل هذه، فإنهم يسردون «الموضح». وكانت العادة المتبعة لديهم، أن المتون الصغار المتقدمة، يتمشى فيها المبتدئون وحدهم، ومن كان شاديا لا

يدخل معهم، لئلا يشوش عليهم أولاً، ولكي يألّفوا الاعتماد على أنفسهم ثانياً وليستعدوا للمناوبة في أنصبتهم مع الأستاذ ثالثاً⁽¹⁷⁾.

وأما الشادون الذين درسوا «الألفية» مرتين فإنهم يسردون «الموضح» ولهم نظام خاص كما كان للمبتدئين نظام خاص بهم أيضاً، إذ يقبلون على التناوب فيتناوبون على مطالعة نصاب الألفية، إما بعد العصر أو بين العشائين، فيأتي من عنده النوبة، فيلقي ذلك الدرس الذي سيقدره الفقيه غداً بما أوصلته إليه مداركه، وقرناؤه مستديرون به، ويجاذبونه ويثيرون الإشكالات، وقد تهيأ لكل ذلك بإحاطته للدرس وما يتعلق به، خوف أن يتخذ ضحكة، وعليه أن يأتي أمام الشادين والمبتدئين بمسألة نحوية ويذكر كل ما فيها. ويقرر بهجة «السيوطي» والموضح عند السرد، وبعده يقرر الفقيه الدرس وبيده، البهجة المذكورة وإزاءه الشراح الميسرة فيتتبع البيت بعد أن يقرره للطلبة، بحيث كلما تمت مسألة، يسرد أحد المبتدئين «المكودي» ويسرد أحد الشادين «الموضح» بالمناوبة ثم ينتقلون إلى مسألة أخرى حتى يتم الدرس. ويكون دائماً عن يمين الفقيه تلميذ يسمى «القارئ» وهو الذي يفتح له إن قال «زد يا سيدي» فيعلن له برأس النصاب. ومن المعتاد أن يتغنى أولاً بما يقرأ من الألفية بغنة خاصة قبل أن يفتح الدرس، فبمجرد ما يدخل التلاميذ ويجلسون يبتدئ الفقيه بالأبيات التالية :

«أعوذ بالله من الشيطان	ذاك الرجيم عدو الإنسان
أول ما نقول بسم الله	وخير ما نذكر حمد الله»
محمد بشر لا كالبشر	بل هو كالياقوت بين الحجر ⁽¹⁷⁾

تم ترجز معه الأبيات التي كان الطلبة طالعوها، ثم يقول الأستاذ بعد السكوت، زد يا سيدي، فيعلن له القارئ برأس النصاب فيقرره، ثم إن انتهى إلى المحل الذي وصلته مطالعة الطلبة قبل، يقول له القارئ : «وصلى الله» بهذا اللفظ، وذلك دليل على انتهاء ما طولع، فيدعو الأستاذ فيخرج الطلبة، وهكذا يرجز كل

منظوم مما كان رجزاً بالأبيات السابقة، وما كان طويلاً كالجمل يفتتح بهذه الأبيات :

له همم لا منتهي لكبارها	وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها	على البر كان البر أندى من البحر
عليه صلاة الله ثم سلامه	وأل له مع صحبه السادة الغر

وكان إعراب البيت يؤخر حتى يتم تقرير النصاب، والطلبة هم الذين يتتبعون الأعراب بتثبت، والفقيه إنما ينطق لهم بالكلمة التي يراد إعرابها.

ومن العادات المتبعة في الفقه أن يخصص الصباح أولاً للمختصر، فيفتتح القارئ، فيمشي الفقيه يتلو الدرس إلى نهايته التي يقول فيها القارئ «وصلى الله»، ثم يرجع فيقرر للتلاميذ في ألواحهم، ثم يتتبع الصور صورة صورة، وفي كل صورة قررها، يسرد عليها «الدردير» ويراجع الدسوقي، ثم إن حصل إشكال، يراجع، الزرقاني والخرشي وحواشيها وهكذا حتى يتم الدرس، وقد كان الطلبة طالعوا أيضاً «المختصر» على الكيفية المقدمة في «الألفية» ويستغلون بين العشائين في غالب المدارس لهذه المهمة، وبعد المختصر تقرأ «الرسالة» ثم «التحفة» ثم «المقامات».

وبعد العصر يخصص «للألفية» ويكون بعدها درس آخر كالزقاقية أو التلخيص قبل الأصيل، أو درس من دروس المبتدئين.

والدراسة العامة كلها لا تكون إلا في اللوحات، ليحفظ ما يكتب فيها إن كان لابد من حفظه، ويقرأ ما شاء الله حتى يرسخ معناه إن كان مما لا يعتني بحفظه، ولا يترك اللوحات إلا من تفوق وقرأ الألفية ثلاث مرات فأكثر والمختصر كذلك، فحينئذ يرخص له في الاقتصار على الكتب، وإلا حفظوا كل ما كتبوه في ألواحهم من الشواهد والقيود والتقارير المفيدة وأبيات القواعد ومجمع النظائر يصدق عليهم في كل ما درسوه مثل هذه الدراسة قول الشافعي⁽¹⁹⁾ رحمه الله.

علمي معي حيثما يمتت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

بهذا النظام العجيب الذي تطبقه المدارس العتيقة، والمطبوع بالتمكن والمعاركة تجد السوسيين في كل ما درسوه أرسخ الناس، بحيث لا يحتاج من قرأ مثل هذه القراءة أن يطالع ما سيقدره للطلبة، ولا أن يراجع إن كان فقيها لأن ذلك كان عنده كأصابع يده من كثرة التكرار والإعادة والمطالعة بين الأقران.

وبهذا النظام أيضا استطاعت أن تركز الهوية المغربية والعقيدة الإسلامية، والمذهب المالكي في نفوس المواطنين، وأن تنشر الإشعاع المغربي في افريقية والشرق العربي بين العرب والمسلمين، بما خرجته من أفاذا العلم ورواد الإيمان، وأن تلقن للقبائل في السهول والجبال فضل الدين وخلق الدين، وتعاليم الدين، على وحدة المسلمين وتعاطفهم وتآزرهم لنشر الأخوة والسلام بين الناس أجمعين.

تأثير المدارس العتيقة في الحياة العامة بسوس

إن الحركات التعاونية السائدة لحد الآن في قبائل سوس⁽²⁰⁾ والمتمثلة في أعمالها الاجتماعية، ومساهماتها الجماعية لبناء الطرق العامة، وحفر الآبار لتوفير الماء الصالح للشرب في القرى ومد الخطوط الوطنية للكهرباء بينها، وفتح المؤسسات التعليمية، والصحية، وتشديد النوادي النسوية للخياطة والنسيج، وتنظيم المواسم الدينية، واللقاءات الصوفية، والإقبال على تجديد المدارس العلمية العتيقة، وتزويدها بالأطر المعلمة والمربية بكيفية دائمة لتدل دلالة صادقة على تأثير هذه المدارس في توجيه المواطنين نحو سيرهم العام في مواكب الإيمان، وتنويرهم الشامل لمقامات الإحسان، وتقديرهم التلقائي لحقوق الإنسان.

وقد ساعد رجالاتها على هذا التأثير الحسن تلك البذرة الخيرة التي بذرها الله في آبائهم الأولين وتلك الروح الطيبة التي جمعت كلا من الشيخ وگاگ بعد رجوعه من القيروان وتلميذه عبد الله بن ياسين التمنارتي بعد رجوعه من الأندلس في قبيلة من قبائل المصامدة ليجددا حركة العلماء الذين كان يسرب إليهم عبد الله بن ياسين من غنائمه في الصحراء⁽²¹⁾ من جهة، ولينفذا من جهة أخرى الفكرة الربانية التي حولت رغبة يحيى بن ابراهيم الكدالي من تونس حينما استصعب شبابها الرفقة معه إلى الصحراء بتوجيه من أبي عمران الفاسي الذي قال له وهو يوجهه ويرسله إلى وگاگ بسوس :

«إنني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة، فقيها حاذقا تقيا ورعا، لقيني هنا (القيروان) واخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه وگاگ بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم، ويدعو الناس إلى الخير في رباط هناك وله تلاميذ جمة، يقرأون عليه العلم⁽²²⁾».

وتتنوع هذ المدارس إلى مدارس القرآن والقراءات والعلوم الإسلامية بكيفية عامة كما تتنوع إلى مدارس الحديث والفقه والآداب والأصول بكيفية خاصة، فالمدرسة الأولى منها، وهي مدرسة وگاگ المؤسسة في القرن الخامس الهجري، قيل إنها للفنون والقراءات كما تحدثوا عن مدرسة الجرسفيين المؤسسة في القرن السابع الهجري عصر أبي يحيى المتوفي سنة 685 هـ بأنها مختصة في الفقه، وأن مقبرتهم تضم جناحا خاصا بالنساء الحافظات للمدونة في ذلك العصر الذي كانت فيه المدونة الكتاب الوحيد في الفقه الإسلامي⁽²³⁾. وذكروا كلا من مدرسة «أزاريف» المؤسسة في القرن الثامن، ومدرسة «تانكرت»، المؤسسة في القرن التاسع، ومدرسة «أقا» المؤسسة في القرن العاشر في الصحراء المغربية ومدرسة «تامانارت»، التي كان أستاذها سيدي محمد بن ابراهيم الشيخ ومدرسة سيدي الحسن بن عثمان التملي أستاذ محمد الشيخ السعدي، ومدرسة

«تازموت» التي أحياها بالعلم أحفاد الإمام ابن العربي المدفون في مقبرة «المظفر» أمام باب محروق بفاس، بأنها للفنون⁽²⁴⁾.

وغالبا ما يرجع هذا التنوع إلى ميول الفقهاء وتخصصهم وطبعهم وتطورهم، فكما يتطور رجال الأعمال من أهل سوس في ميادينهم الخاصة كذلك يتطور علماءهم في ميادينهم العلمية، ويرتحلون إلى الآفاق ليكتشفوا ما هناك، ومن عرف «أبا موسى الجزولي وابن الوقاد الروداني وأبا يحيى الكرسيفي ومحمد بن ابراهيم الشيخ وأحمد التيزركيني وابن سليمان الروداني وأبا مهدي السكتاني وامحمد بن سعيد الميرغتي، والحضيكي وأحمد البوسعيدي والهشتوكي أحوزي⁽²⁵⁾ ومحمد الأكنيضي في يدرك مساهماتهم للمستجدات ومواكبتهم للأغراض والمتطلبات.

ورغم هذا التنوع الذي يفرضه الطموح السائد في الساحات فإن جميع الفقهاء ملتزمون باجتهادات السابقين ومتشبثون بسيرة العلماء المجددين ومتنافسون على أن ينيروا مدارسهم بالعلم والدين، إكبارا لجهاد/(ابن ياسين) الذي رفع رايات خفاقة، للعلم العربي والخلق الإسلامي في الصحراء وأفريقية الشاسعة الأطراف، وأسس في المغرب المسلم امبراطورية اسلامية تذكر فتشكر.

وهكذا واصلت المدارس مسيرتها العلمية عبر القرون وكانت العلوم العربية خلالها في الأمام متماسكة الحلقات تحوطها جهود المؤسسين وتبعثها قرائح المجددين وينعشها رجاء العاملين، ويمدها العرش والشعب بما يقوي الإرادات ويذكي الأفكار وينمي الطموح ويجعل رجالاتها يقبلون إقبالا كليا على ما أتحفهم به القرن التاسع الهجري من نهضة علمية عجيبة ظهرت آثارها في أنشطتهم التدريسية والتأليفية وكثرة تداول الفنون لديهم بحيث شاركت سملالة وبَعْقيلة روسموكة وأيت حامد وأقا والكرسيفيون والهشتوكيون والوادنونيون والطاطائيون والسكتانيون والراسلواديون وغيرهم مشاركة فعالة أهلكتهم لمواكبة ما طلع به

عليهم القرن العاشر من حركة علمية أوسع مما قبلها مكنتهم من الخروج إلى الميدان الحيوي والمعترك السياسي ليشاركوا في الأمور العامة ويستحوزوا على قيادة الشعب، فكانوا سبب توطد الدولة السعدية التي ساندتهم هي بدورها فكان فيهم الكتّاب الماهرون والإداريون المقتمدرون والشعراء المفلقون والسفراء المحنكون ورؤساء الشرطة وقواد الجند والحرس الملكي الخاص⁽²⁶⁾ وغيرهم من المهام التي جعلت سوس تزخر علما بالدراسة والتأليف وفتحت الطريقة أمام بعثاتها التي تتوالى إلى فاس ومراكش والأزهر لترجع منها بجر الحقائق بتحقيقات الونشريسي وابن غازي ونظرائهم من الذين نشروا العلم والعرفان وجعلوا كلما يدرس في القرويين يكاد يدرس في سوس فتم بذلك تلقيح الأفكار وتحفيز همم النابغين لياخذوا طريقهم نحو قصبات السبق في العرفان ويتوكلوا ذروة المجد في كل ميدان ويتحلوا - علاوة على ذلك - بمختلف المكارم وأخلاق القرآن.

وحيثما جاءت الدولة العلوية كانت سعد السعود علي السوسيين فتكاثر مدارسهم وزخرت بالطلبة حلقاتهم وتنافست القبائل في بنائها حتى إن معظمها لا نراه إلا أسس في عهدهم كما يقول المؤرخون. فقد لاقى السوسيون من هذه الدولة الإحترام الزائد والتقدير الكبير، الأمر الذي جعلهم يقبلون على السلطان المولى اسماعيل بقوافيهم الطنانة ويلاقون بالترحاب من خليفته بتارودانت الذي فتح لهم الباب على مصراعيه واستقدمهم إلى مجلسه الخاص فتبادل معهم الأشعار وأعجب بهم إعجابا جعله يقول فيهم كلمته الخالدة :

(إني لم افرح بقيادة سوس كما فرحت بوجود مثل هؤلاء الأدباء)

وقد ازدهر العلم والأدب في عهد (محمد العالم) واسترد قوته التي فقدتها منذ سقوط (إيليغ) وغمر السعد العلماء وأرباب الفنون باجتماعهم على هذا الأمير الذي اسبغ عليهم نعمه وتشجيعاته وكون من نبغائهم ناديه الأدبي الرائع والمذكور في «نفحات الشباب».

وقد نشر هذا النادي الأدبي لمحمد العالم في أوساط سوس العالمة النبل العلوي على أوسع نطاق وجعل المحبة ضاربة أطناها بين السوسيين وبين العرش العلوي المجيد، وكانوا يقدمون علماءهم قبل رؤسائهم لأنهم يقدمون البيعة حق قدرها إلى حد أنهم يصبحون أحيانا حراس الوحدة المغربية ويقاومون الثوار الذين يثبون في كل فرصة وجدوها.

ويدل على هذا ما قام به العلماء ضد (بوحلاس)⁽²⁷⁾ إذ لولاهم لفاز بمرامه، ولكن العالمين : علي ابن ابراهيم الأدوزي ومحمد بن أحمد التاساكاتي قاوماه مقاومة عنيفة وعرقلاه عن قصده حتى قتل وذلك في أيام المولى سليمان رحمه الله.

ومن ذلك أيضا ما قاموا به سنة 1276 هـ في الدفاع عن الكيان في قضية (تطوان) إذ قام كل من الفقهاء الحسن بن أحمد التمكنشتي والحاج أحمد الجشتيمي وأحمد ابن ابراهيم السملالي والحسين الأزاريفي والعربي الأدوزي ومحمد ابن علي اليعقوبي ومحمد بن صالح التدارتي الباعمراني وغيرهم من الذين ينادون في الناس ليلبوا دعوة السلطان وينفروا خفافا للدفاع عن الوطن.

ومن ذلك ما قام به المولى الحسن الأول في رحلتيه إلى سوس سنة 1299 هـ وسنة 1303 هـ حينما اجتمع عليه العلماء واستقبلهم بتجلة ما مثلها تجلة فآجاز وكتب الظهائر وقدم أرباب العلم على أرباب الرئاسة فتأتى بذلك أن تفتحت له كل الأبواب ونجح نجاحاً باهراً في الذهاب والإياب.

أما محمد الخامس رحمه الله، فرغم أن دهاقنة الاستعمار، هم الذين اختاروه ليخلف والده مولاي يوسف رحمه الله سنة 1927، ظنا منه لصغر سنه (17) أنه سنة سيكون طوع أيديهم، لكن محمد الخامس جاء بقدر من الله، ليقم ادليل على أن ما تجد عبر القرون على تقاليد الشرف والغيرة الوطنية، يرضعه المغاربة أطفالا من ثدي أمهاتهم.

وهكذا فبمجرد ما صدر الظهير البربري سنة 1930 خطب في القرويين قائلاً للخريجين «لن أتخلّى أبداً عن حق من حقوق وطننا». ومنذ ذلك الحين بدأ يخطط للتعليم العتيق وجعله منظماً تحت إشراف إدارة الأحباس في كل من القرويين وابن يوسف والمعهد العالي بتطوان ومكناس مشجعا أساتذته وطلابه على مواصلة الجهود حتى يدركوا الشأ الذي أدركه الأولون في ميادين العلوم والعرفان.

وممن واكب هذه التوجيهات الملكية العلامة المرحوم شيخ الجماعة سيدي المختار السوسي الذي اتخذ زاوية والده في الرميطة بمراكش، وفتح بها مدرسة للتعليم العتيق بعدما ملأ وطابه من مدارس سوس ولقح معلوماته من فاس والرباط.

وقد بذل فيها جهده وعلم وأرشد ومون، مقتدياً بالأولين من العلماء الصالحين، ومستعيناً بإخوانه الذين واكبوه في مسيرته فأسسوا مدارس خاصة بهم في منازلهم فكانت هناك مدرسة سيدي محمد بن الحسن الدباغ ومدرسة سيدي أحمد أكرام، ومدرسة سيدي عبد القادر المسفيوي، ومدرسة سيدي محمد بن عبد الرازق الفاسي، ومدرسة سيدي عبد الجليل بلقزيز وغيرهم ممن نوروا مدينة مراكش بالعلم العتيق، وايقظوا بذلك همم الكهول والشبان، وحركوا شعور المواطنين، وأقلقوا بذلك راحة المستعمرين فنفوهم إلى تارودانت كما نفوا قبلهم كبش كتيبتهم سيدي المختار السوسي إلى مسقط رأسه «إلغ» بناحية تفراوت بسوس عقاباً لهم على جهادهم العلمي الخالص لوجه الله.

وبعد تحريرهم من السجن ورجوعهم من المنفى، اختار كل واحد منهم طريقه فاختر سيدي محمد المختار السوسي طريقه الأول فاستعان بالقائد العيادي ليقوم بواجبه في نشر التعليم العتيق بالرحامنة ومراكش، فكانت مدرسته الأولى بابن كزير وكانت الثانية بالزاوية العباسية بمراكش.

وقد تخرج من مدرسة الرميطة عدد من العلماء والشعراء والزعماء أمثال السادة ابراهيم الإلغي ومحمد ابن أحمد الإلغي ومحمد بن ابراهيم الدفلي، والحسن البونعماني، ومحمد الروداني. وعرفة الفاسي، والحسن التتاني، وعبد الله ابراهيم المصلوحي، وعلي ابن المعلم السوسي، وعبد القادر حسن، ومحمد بن سعيد ايت ايدر الهشتوكي وغيرهم من الذين اكبروا نبيل واهتمام التعليم العتيق والحر إلى حد أنهم كانوا السباقين لمناصرتهم ومساندة جلالته في غضبته التاريخية ضد الاستعمار.

ولما رجع رحمه الله من منفاه كان علماء سوس من الوفود المهتنة لجلالته في قصره العامر بالعودة المظفرة، وتحرير المغرب من الحجر والحماية.

وخلال المذاكرة الجالية بين جلالته والعلماء في هذا الاستقبال التاريخي العظيم تقدم ممثلهم وألقى بين يدي جلالته ملتئمهم حول التعليم العتيق والإهتمام به وتشجيعه المناسب له في عهد الحرية والاستقلال⁽²⁸⁾.

وقد أبى جلالته إلا أن ينشره في تارودانت والجديدة، وينميه في الشمال والجنوب لصالح الفتيان والفتيات، ويدمجه في وزارة التعليم ليواصل مسيرته في ظلال الكرامة الوطنية، ويواكب الركبان العلمية في الداخل والخارج.

ولما التحق بالرفيق الأعلى، ترك وارث سره مولانا الحسن الثاني طيب الله ثراه، ليواصل النبل العلوي، ويترجم إيمان العرش بالتعليم العتيق.

فقد شجعه بدوره، ونشره في كل من تزيت وگلميم وطاطا وتافيلالت، ونظمت تحت رعايته السامية ندوات في كل من تزيت وأگادير ومراكش والحوز.

وها هو اليوم والحمد لله - يواصل خطواته في عهد مولانا محمد السادس نصره الله الذي بارك أعمال اللجنة الملكية للتربية والتكوين، وأصدر الظهير الشريف المكرم للتعليم العتيق.

خصائص المدارس العتيقة بسوس

بعد هذا التعريف المختصر للمدارس العلمية العتيقة أود أن أختمه بالحديث عن بعض خصائصها البارزة في العمل الدائم فيها ليلاً ونهاراً والموزع بين آداب التعليم ومراعاة السلوك العملي الواجب اتباعه في كل فضاء مدرسة بكيفية مستمرة حتى في يومي الخميس والجمعة اللذين يعتبران فيها الراحة الأسبوعية.

ولا ينقطع النشاط العلمي فيه إلا في أيام العطل السنوية المعلومة بمناسبة الأعياد الثلاثة : الفطر والأضحى والمولد النبوي والمحددة بأسبوع قبل كل عيد وأسبوع بعده، ثم يعود العمل إلى حالته بانتظام.

ومما تختص به المدارس العتيقة ما يطبق فيه على طلبتها من المحافظة على الصلوات الخمس في الجماعة، وتلاوة الحزب الراتب صباح مساء على الطريقة المتبعة في حزب الشيخ ابن ناصر رحمه الله، والتي تتلى فيها (سورة الكهف) عشية كل خميس (وسورة ياسين وتبارك) صباح كل جمعة فتوافق الختمة فيها دائماً يوماً من أيام الأحاد.

ويفتتح الحزب الراتب إمام المسجد أو كبير القراء إن حضر، أو من يكلفه الفقيه بذلك ثم تتلى بعد ختمه - البردة - للبوصيري مساءً والهمزية صباحاً والمقسمتين أجزءاً بدورهما على أيام الأسبوع.

ويطبق هذا النظام في سوس وحاحة ودرعة بتأثير من السادة الناصريين.

وبعد هذا كله يأتي دور إعراب الوقف الأول من الحزب الراتب كل مساء وفقهاء المدارس يعتنون به إلى حد أن بعضهم ألف فيه مثل داود بن محمد السملالي الذي له مؤلف في إعراب أوائل الأحزاب⁽²⁹⁾ وأبي زيد الجشتيمي الذي ألف مجلدين في إعراب القرآن كله.

وذكر أبو القاسم التجيبي⁽³⁰⁾ أن الجزوليين يعتنون بمادة الفرائض ويحصلونها وما يتعلق بها.

وينفرد فقهاء المدارس العتيقة بأخلاق حسنة وآداب رفيعة حسب ما يذكره «الرصاع»⁽³¹⁾ في فهرسه وهو يترجم لشيخه يعقوب المصمودي نزيل تونس ثم الشام فيسجل ارتسامات المترجم عن علماء المصامدة في هذه القولة أثناء كلامه ويقول : «أما أنا فما أدركت المشايخ على هذه الحالة من كثرة الكلام وإظهار الفصاحة والزيادة على المقصد في الفهم، وقل أن يسلم الإنسان مع الله في ذلك ولا أدركت مشايخي يستندون إلى حائط بل يستقبلون القبلة في المسجد ويجلس الطلبة معهم يمينا وشمالا ويقتصرون على أقل موضع في المسجد وقد شاهدنا شيوخنا من المصامدة أهل الورع والحفظ والفقه والتحفظ في أعمالهم يتأدبون بآداب العلم ولا يرفعون أصواتهم على أصحابهم فضلا عن شيوخهم ولا يراجعون الشيخ إلا تفهما لا اعتراضا عليه».

ويصف «الرصاع» طريقة شيخه في التدريس هكذا : «والشيخ سيدي يعقوب يحل اللفظ بشرحه، ويتعبد الألفاظ عن شيوخه - بسكون وهدوء وورع - في العبارة وفي النقل وإذا تشكك يقول : «لا تنقلوا عني هذا».

وهذه الطريقة انتهجها أحد علماء سوس في «القرن الهجري العاشر» الميلادي السادس عشر الميلادي، وهو : مبارك بن علي بن ابراهيم نزيل فاس والمتوفى عام 982 هي الموافق 1575 م وهو أستاذ أحمد بن القاضي فيقول عنه في «المنتقى المقصور»⁽³²⁾:

«قراءته لخليل يصور المسألة فقط كعادة مصر والمشرق وحدثني شيخنا أبو راشد ان قراءة الزقاق وسيدي علي بن هارون، كانت كذلك أيضا فهي أنفع لطالب العلم».

ويذكر اليوسي منهجية السوسيين المتميزة في تعليم مادة «التصريف»، وينوه بها فيقول عند ترجمة أستاذه عبد العزيز الرسموكي : «وحضرت عنده في تصريف الفعل، وله ولأهل بلده في ذلك طريقة نافعة»⁽³³⁾.

وفي صدد تدريس الطب بالمنطقة يبرز اسم أبي العباس أحمد بن الإمام محمد بن أحمد الحضيكي، فيعدد أحد تلاميذه مقروءاته عليه ويذكر ألفية ابن سينا مع شرحها لابن رشدت يضيف، «وسمعت منه كثيرا من تذكرة الانطاكي في الطب ومن «الزهرابي» يحدثني بكلامهما من حفظة، وكان مولعا بذلك الفن»⁽³⁴⁾.

ويبدو أن تذكرة الانطاكي وصلت مبكرا إلى سوس، فيسند إلى مؤلفها : يحيى الجراري في فهرسه «ضوء المصباح»⁽³⁵⁾. ويسوق سنده في الطب عن شيخه سيدي محمد الأزاريفي عن سيدي يبورك بن عبد الله بن بعقوب السملالي عن والده سيدي عبد الله المذكور إلى أن ينتهي السند للشيخ داود الأنطاكي.

ومما تمتاز به المدارس العتيقة تفاني طلبتها في الاجتهاد لتحصيل العلم، يقص ذلك سعيد الهوزالي عن أستاذه أبي القاسم بن عمر التفنوتي ثم الدرعي حين يقول : «وكانت مساكن دراستنا قرب مسكنه ونحن نجد غاية الجد، فكان يقول لنا : «ما كنتم تصنعون شيئا، ما هكذا عرفت جزولة»⁽³⁶⁾.

وأبو القاسم التفنوتي كان يحض طلبته على الإحتراف بما يكونون به معاشهم⁽³⁷⁾. وقد لمع بين علماء سوس أفراد كانت لهم يد صناع متميزة، ونتخير من نماذجهم أربعة :

أ. العلامة سيدي امحمد بن ابراهيم الشيخ، كان مهتما بتعبيد الطرق وبناء القناطر والدعوة إلى توحيد الأمة والجهاد لتطهير الشواطئ من الدخلاء، وقد شارك بنفسه في تحرير الجديدة من البرتغال وقد بلغ من الكبر عتيا.

ب. الجمال المغربي : عبد الله بن محمد أبي عبد الله السوسي ثم المصري المتوفي سنة 803 هـ/1683 م، كان حسب ابن حجر أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة⁽³⁸⁾.

ج. الروداني محمد بن سليمان السوسي، نزيل الحرمين الشريفين المتوفي 1094 هـ/1683 م، ويقول عنه أبو سالم العياشي⁽³⁹⁾ : «وكانت له يد صناع، يحسن غالب الحرف المهمة، سيما الرقيقة العمل، الرائقة الصنع كالطرز العجيب والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب والخرازة.

د. «الشيخ احوزي» الذي أسس مدرسة في «تغازي» بمالي للعلم إلى جانب تدريبه للطلبة على الحرف الدقيقة⁽⁴⁰⁾ والتجارة.

هـ. الأدوزي محمد بن العربي بن ابراهيم السملالي المتوفى سنة 1323 هـ الموافق 1906 م)، وكان يحسن غالب الحرف المهمة، سيما التزويق والتسفير للكتب والتجارة والبناء⁽⁴¹⁾.

ومن خصائص المدارس العتيقة بسوس، أن نفقات التعليم بها لم تكن قط من الدولة ويتبناها الموسرون من زكواتهم وهباتهم المنوعة، توارثوا تقديمه خلفا عن سلف، وهي التي تغطي نفقات الكتابات القرآنية ومعلميها، والمدارس العلمية وفقهائها وتلاميذها شرطا وسكنى وتموينا، ويتم ذلك وفقا لتقاليد عفوية⁽⁴²⁾.

أما لغة التدريس بها فكانت هي اللهجة الشلحية، بينما استمرت العربية لغة التأليف، ولم يشذ عن ذلك سوى مؤلفات محدودة في أغراض تعليمية.

مساهمة المرأة في التعليم العتيق

وقد ساهمت المرأة كذلك بأنشطتها التعليمية⁽⁴³⁾ في المدارس العتيقة بحيث ذكرت هناك أربع من المثقفات السوسيات حافظت المصادر على أسمائهن مثل :

(1) رحمة بنت الإمام محمد بن سعيد السوسي الميرغتي، تاريخ وفاتها غير مذكور وتوفى والدها عام 1089 هـ/1678 م، وقد استفيد من المختصر الفقهي المبسط لها أنها كانت على درجة من الثقافة.

(2) فاطمة بنت محمد الهلالية المتوفاة عام 1207 هـ ولها ترجمة في فهرس تلميذها محمد بن عمر السوسي الأبيوركي، فيصفها بالفقيهة العالمة السالكة، ويذكر أخذها عن الشيخ أبي العباس ابن ناصر وغيره.

(3) عائشة بنت الحاج مبارك الشلح التكي بن أحمد بن الحسين التكي المتوگي، كانت بقيد الحياة عام 1245 هـ/1830 م، ولا يعرف عن حياتها إلا أنها خطت - بيدها مصحفا شريفا ومؤلفين :

أ. مصحف شريف، كتب في آخره باللون الأحمر : «كمل القرآن العظيم، بقدرة الجليل الكريم، بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل، على يد خديمة ربه الضعيفة (كذا) عائشة بنت الحاج مبرك (كذا) الشلح التكي، غفر الله لها ولوالديها وللمن نظر في خطها، ولجميع المومنين والمومنات، المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، اللهم اجعل آخر كلامنا لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وإثر هذا في الهامش كتب بلون السواد : عام سبع وثلاثين ومائتين وألف⁽⁴⁴⁾.

ب. «مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات» : اسم الشرح الصغير لدلائل الخيرات للجزولي : تأليف محمد المهدي الفاسي، وقد ذيلته بهذه الخاتمة :

«كمل الكتاب المبارك - بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل - صبيحة يوم الجمعة، الثاني والعشرين يوما من شهر الله جمادى سبعة وثلاثين ومائتين وألف 1237 هـ الله يوفقنا للصواب، على يد أمة الله : عائشة بنت الحاج مبارك

(كذا) بن أحمد الشلح التكي، البائس الفقير، الضعيف الحقير، المحتاج لرحمة الله ومفتاح البصير (كذا) غفر الله لها ولوالديها ولشيوخها ولمن نظر في خطها، وكل من قرأه يدعو لها ولجميع المومنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، ورضي الله عن أصحاب النبي أئمة الهدى، ومصابيح الدنيا، وعن التابعين والحمد لله رب العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم اجعل آخر كلامنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله»⁽⁴⁵⁾.

ج. مدارك التنزيل، وحقائق التأويل : اسم تفسير القرآن الكريم لعبد الله النسفي في سفرين، وقالت آخر السفر الأول : «قد انتهى الجزء الأول، وكان الفراغ منه يوم الأحد (كذا) الثاني والعشرين من شهر الله ذي القعدة عام خمسة وأربعين ومائتين وألف، على يد أمة الله : عائشة بنت مبارك (كذا) بن أحمد نجل الحسين الشيخ التكي الغشي الحسنوي، غفر الله لها ولوالديها»⁽⁴⁶⁾.

(4) عائشة⁽⁴⁷⁾ بنت السيد أحمد الجشتيمي الواعظة :

وعائشة هذه ممن ضرب بسهم في المعارف كانت مثوى الوافدات من النساء جماعات يسألنها عن أمور دينهن وقد رفعت عالم النصح بينهن وشهد لها كل جيران قبيلتها بأنها فريدة من نوعها فهي تعلم الدين وعقائد التوحيد وتجول في التصوف وتلمي من الكتب العربية والشلحية.

وقد رثاها الشاعر محمد العثماني بقصيدة رائعة مطلعها :

قم واملاً القطر الكئيب عويلاً إنني رأيت اليوم صبرك عيلاً
حزناً على (بنت الفقيه)⁽⁴⁸⁾ وهل بكت عين على أمثالها مسبولاً

إلى أن قال :

وقضيت في إرشادهن أمانة وحملت عبئا لم يكن محمولا
حتى رأينا في الرجال من اقتفى آثار من دللتها تدليلا
كابدت في الرشاد كل مشقة وكبت قوما قرروا التضليلا

هذه أيها السادة الكرام بعض خصائص المدارس العلمية العتيقة، والجوامع الأصيلة التي كانت ركيزة التعليم العربي في المغرب ونشرت الدين الإسلامي في حواضره وبواديه وكونت المواطن المغربي على نمط فريد يتجسد في تعامله بأخلاق القرآن الكريم وتحليه بالمثل العليا التي تجعله إنسانا يتعايش مع غيره في أفق فسيح من التآزر والتكامل وأرضية واسعة لحياة مشبعة بالمثل والقيم.

إنه الإنسان المغربي المتميز بشخصيته المعروفة عبر التاريخ والتي أغنت الميادين العلمية والثقافية بشكل يبرز خصوصية الفكر المغربي وعبقورية المغاربة الذين برزت أدوارهم في القيام برحلات وسفارات، ومهام أخرى في الحكم والإدارة والديبلوماسية ومختلف العلاقات مع أقطار المعمورة.

وحينما اندفع المغرب في سياق التيارات الحضارية المعاصرة، ووقع التفاعل بين الثقافات بصورة تتعرض فيها الخصوصيات الأصلية للبلدان الإسلامية لعوامل التدمير والإفناء، فإن أقوى ما يعين شخصيتنا المغربية على الصمود والتحدي أمام كل عوامل التدمير المعاصر لهو الحفاظ على هذا النوع من التعليم العتيق الذي أنادي به من هنا، لتعزيزه وتقويته، مع إجراء التعديلات التي تجعله أداة لترسيخ هويتنا وإعطائها القوة التي ستدفعها إلى الاستفادة من كل مزايا العصر، دون أن تذوب في ممارستها اليومية الجارفة، التزاما بالتوجيهات السامية التي بلورها الظهير المحمدي المذكور أعلاه، كخطة شاملة للجمع بين الرصالة والمعاصرة الذي يعتبر ركنا أساسيا لتحقيق التوازن في عالم اليوم.

الهوامش

- (1) ورقة اللغة المقدمة أيضا إلى اللجنة المذكورة بتاريخ 23 ذي الحجة 1422 هـ الموافق 14 مارس 2002.
- (2) عبد الله السعيد الكراكي : «السيف المسلول» ص 27 - «العيون المرضية في ذكر مناقب الطائفة الركرائية»، مخطوط الأكراري «روضة الأفنان» 193، المختار السوسي «المعسول» الجزء الرابع الصفحة 5 - الخفاجي «نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض» الجزء الأول، ص 429 - السيد عبد الهادي التازي، المجلد الثالث «للتاريخ الدبلوماسي بالمغرب»، ص : 32-1987 - وفي مجلة المغرب التي تصدر في الثلاثينات عدد خاص بالجنوب تحت عنوان أقدس بقعة في جنوب المغرب لا يعرفها المغاربة ويقصد بها الكاتب عبد الحي الكتاني رباط شاكور في عبدة وذكر بأن لهذه القصة 20 مرجعا من جملتها مسلم رحمه الله. - «معلمة المغرب»، الجزء 13 ص : 1744 وفيها معلومات جد هامة - حول رجالات ركرائة ، ص 161 - من أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة آسفي.
- (3) يحدد عبد الواحد المراكشي بلاد المصامدة من عصره فيذكر أنها تمتد عرضا من نهر أم الربيع إلى الصحراء، وتبتدئ طولا من جبل درب إلى المحيط، «المعجب» ص 226، مطبعة السعادة بمصر - الحقيقة الضائعة لمصطفى العلوي - جريدة الأسبوع - الجمعة 15 يناير 1999.
- (4) «صحيح مسلم».
- (5) الدورة الربيعية لأكاديمية المملكة، ص 35، سنة 2001.
- (6) المعسول، ج 1، المقدمة.
- (7) محمد المانوني تحدث عنها قائلا : ان الحركة التعليمية بسوس بدأت تنتظم نحو بداية القرن الهجري الخامس الميلادي عشر بمبادرة من وكاك بن زلو اللمطي، كما ذكره عياض بأنه بنى دارا بسوس للعلم والخير وترجم له ابن الزيات وقال في شأنه : فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقرأ القرآن.
- (8) الرحلة، ص 139.
- (9) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 51.
- (10) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 53.
- (11) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 53.
- (12) والهجوري بفتح الهاء ما يؤكل بين الغذاء والعشاء،
- (13) محمد المختار السوسي : «المدارس العلمية العتيقة»، ص 55.
- (14) محمد المختار السوسي : «سوس العالمية»، ص 30.
- (15) «مدارس سوس العتيقة»، ص 61.
- (16) «سوس العالمية»، ص 31.
- (17) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 77.
- (18) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 78.

- (19) محمد المختار السوسي : «مدارس سوس العتيقة»، ص 79.
- (20) تطلق هذه الكلمة على ما يقع من سفوح درب الجنوبية، إلى حدود الصحراء من وادي نون، وقبائله من تكتة والركيبات وما إليها إلى حدود طاطا وسكتانة، انظر : «سوس العالمية»، ص 16.
- (21) الناصري «الإستقصا»، الجزء الأول، ص 101.
- (22) «روض القرطاس»، ص 123.
- (23) محمد المختار السوسي : «سوس العالمية»، ص 155.
- (24) «بشارة الزائرين»، مخطوط.
- (25) محمد المختار السوسي : «سوس العالمية»، ص 28.
- (26) من مجموعة لدو كاستري أنه لا يتولي في الحرس الخاص في عهد السعديين إلا الجزوليون.
- (27) «نزهة الجلاس في أخبار بوحلاس» لمحمد بن أحمد الأدوزي، الكتاب مخطوط.
- (28) منجزات جمعية علماء سوس، ج 1.
- (29) «سوس العالمية»، ص 40.
- (30) «نيل الإبتهاج»، ص 141.
- (31) «فهرس الرصاع» المكتبة العتيقة بتونس، ص 130.
- (32) «الدرر المرصعة» خ. ع. ك. 265 عند ترجمة أبي عبد الله بن ناصر.
- (33) فهرسة اليوسي، مخطوطة خاصة.
- (34) «المعسول» 23/6 وترجمة الحظيكي بنفس المصدر 325.
- (35) مخطوط خ. س. 4275.
- (36) «طبقات الحضيكي»، الجزء الأول 151،
- (37) «طبقات الحضيكي»، الجزء الأول 151.
- (38) «الضوء اللامع»، ج. 57/5.
- (39) «الرحلة العياشية»، ج 2، ص 38.
- (40) منشورات كلية الشريعة بأكادير - سلسلة أعلام سوس للدكتور الحسن العباسي، ص 20.
- (41) «المعسول»، ج. 5، ص 175.
- (42) «سوس العالمية» 154-155 «خلال الجزولة»، ج 3، ص 173.
- (43) «المعسول»، ج 20، ص 280.
- (44) خ. س. 4225.
- (45) خ. س. 4087.
- (46) خ. س. 5061.
- (47) «المعسول»، الجزء السادس، الصفحة 149.
- (48) أحمد الجشتيمي التلمي نزيل تارودانت، كان مدرسة متنتلة ومتخصصة في إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحروب بين المواطنين وتجريد السلاح من المتخاصمين.

